الهوية.. النهضة
إشكالات معرفية

بحثت عن الهُوية بضم الهاء فى لسان العرب ومقاييس اللغة والصحاح وغيرهم، فلم أجد لها معان عند العرب، ولم أجد ما كتبه البعض عن اشتقاقها من "هو" صحيحا من حيث التأصيل للمصطلح، أما من حيث الاشتقاق الفكرى من "هو" وتطبيقه على الواقع إجرائيا من قبل الباحثين فيعد صحيحا إلى درجة كبيرة. فالمصطلح على ما يبدو فلسفيا محدثا أو متقدما بعد معاجم اللغة العربية. وقد جاء تعريف الهوية فى المطلق: هى مجموعة السمات المميزة للشخص أو المجموع أو الشئ عن غيره، وقد تعدد المصطلح وتجاوز المطلق إلى تعريف الهوية الوطنية والثقافية والدينة والفنية... وغيرهم. لكن الواضح والمطروح التدليسي فى الإعلام العربي عامة والمصري خاصة وبالتحديد عالم الفضائيات، هو تعميم معنى الهوية على الدين وعزل الهوية الشاملة من الطرح تماما، وكأن الأمر اليقيني عدم وجود أي هويات غير الدينية، على الرغم من كون الهوية الوطنية هى الأعم والأشمل ويدخل تحت تكوينها جميع الهويات الأخرى فالهوية الوطنية عندي: مكتسبات فردية تراكمية من التراث والموروث التاريخي والحضاري لدولة ما والتى تتحول بفعل القناعات وملامسة الواقع إلى ضمير جمعي. أما الهوية الدينية فهي: المكتسب الاعتقادي الذاتي عن الإله وأوامره ونواهية و التى تنعكس على الممارسات الحياتية الأخلاقية لضبطها

وفقا للقوانين الإلهية. فأطروحات الهوية الوطنية أشمل وأسبق من أطروحات الهوية الدينية الضيقة، فكانت الدولة المصرية القديمة بهويتها الوطنية الجامعة للفكر والأخلاق والدين والجدل الثقافي والفنى والإجتماعي، أسبق بهويتها الوطنية من الدول والجماعات التى حصرت هويتها فى الدين. فلم تقدم الجماعة اليهودية كهوية أو المسيحية أو الإسلامية ما قدمه قدماء المصريين من البناء والتقدم والعلم والمعارف والحكمة الشاملة. ولم يكن الإسلام تحديدا أسبق من النصوص الدينية المصرية فى طرح الأخلاقيات. فالعطف على اليتيم ومنح الأرملة وذم السرقة وتلويث ماء النهر والتعدي على الآخر لم يكن من باب السبق الإسلامي أو اليهودي أو المسيحي، وما قدمته الديانة المصرية القديمة أسبق مما قدمه التوراة والإنجيل والقرآن الكريم بآلاف السنين، فالجنة والنار ليست إلا أطروحات مصرية قديمة، والحساب والعقاب "ريشة ماعت" وقول الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لن يدخل الجنة عجوز، فى إشارة إلى عودة من سيدخل الجنة إلى حيث كان شابا، جميعها أفكار مصرية قديمة، حتى رحلة الإسراء والمعراج بسماواتها السبع ستجدها فى قصة سانتي وولده فى المرور بسبع حجرات. العذاب واحد والنعيم واحد والأسباب واحدة، فقد سبقت الأفكار المصرية القديمة الكتب السماوية.

توقف قليلا قبل أن تأخذك العزة بالإثم وتنتفض دفاعا عما تعتقد وهما بأنه مغالطة. ما عليك إلا الرجوع إلى نصوص كتاب الموتى وقراءة كتب الديانات المصرية القديمة على اختلاف مصادرها أو أن

تبحث بذاتك على جداريات المقابر المنتشرة فى كافة أرجاء الوطن. إن المعنى الحقيقي للمطروح ليس انتقاصا من قيمة الكتب المقدسة على حد الفهم الضيق، بل منذ آدم وإلى أن تنتهى الحياة، كانت أوامر الله ونواهيه وما أنزله من قيم أخلاقية وإنسانية واحدة، لكن الأنبياء على اختلاف وجودهم الزمنى جاءوا جميعا لإعادة إنتاج تلك الفرضيات الإلهية التى تندثر فى فترة ما، ثم يبعث الله الأنبياء لبعث وإحياء الأفكار من جديد. فالأثبت فى مصر هو الهوية الوطنية المصرية التى تقبل التعددية وتندرج تحتها الهويات النابعة من الهوية الكلية، فالفن عامة مقبول تحت اطار الهوية الوطنية، له محدادات وحلال وحرام وتقيدات تأولية نصية مزاجية تحت الهوية الدينية. الهوية السياسية التنوعية مقبولة فى الأولى، مرفوضة تماما فى الثانية لإجراء اصطلاح الكفر على المنادين بالديمقراطية كما جاء فى الفكر الوهابي الديني. فالنقاش المطروح فى الإعلام المرئي حول هوية مصر، مفتعل بتمويل خبيث مدعوم بأفكار تآمرية مخابراتية. فالبعض يحاول دفع العربة نحو منحدر لا يعرف نهايته. فالمتلقي البسيط لا يعنيه تلك الحوارات الإصطلاحية من قريب أو بعيد، بقدر ما يعنيه ملامسة واقع كريم. لذا يحاول البعض الزج بالبسطاء نحو مفهوم الهوية الدينية التى يكون الزعامة فيها للرؤساء الدينيين، فالمخالفة تعنى الإفساد فى الأرض، والمعارضة تقتضي قطع الأرجل والأيدي من خلاف، والعودة بنا إلى حيث الكهنة الأوروبيين فى العصور المظلمة وامتلاكهم مفاتيح الغفران والجنة والنار. فإذا ما سألت أحد المشاهدين بعد برنامج ساخن

يتحدث عن أزمة الهوية، ما الهوية التى تحب أن تنتمى إليها؟ على الفور وبلا تفكير يصرخ: الهوية الدينية، فإذا ما تبعت السؤال بآخر عما تعنيه الهوية الدينية، على الفور أيضا يرفع يده ثم يستدير بوجهه ويخبرك بأنه على عجلة من أمره لأنه ذاهب لشراء علبة سجائر.

لأن تنتمي ثقافيا إلى دين معين فهذا ليس عيبا، لكن العيب الحقيقي فى محاولة فهمك للثقافة والهوية من منظور ضيق. الثقافة هى الدين.. الهوية هى الإسلام. مفاهيم مغلوطة وضيقة وغير صحيحة على إطلاقها. إننى كمواطن على سبيل المثال، أشرف بأننى مسلم، أنتمي عقائديا إلى الإسلام كفكرة إيمانية، وشرف عظيم لي أن أكون مصري الهوية ولا تناقض بين هذا وذاك، فالأشمل حياتيا يحمل داخله الأقل شمولا. فمفهومى للعلم طبقا للمنظور المصري القديم نابع من الهوية الوطنية. رؤيتي فى تنظيم الإدارات، من ذات الهوية الوطنية. رغبتي فى التواجد كقوة عظمي على خارطة العالم من قناعتي بهويتي الوطنية. قبول الآخر هو أيضا من ذات النبع. إيماني بالأفكار الأخلاقية جزء أصيل من هويتي الوطنية. إيماني بالله وملائكته وكتبه ورسله، نابع من هويتي الجزئية الدينية التى لم تختلف كثيرا فى تفاصيلها مع الهوية الوطنية الشاملة والقادرة بشموليتها على النهوض بالمجتمع. فالمحطات الفضائية التى تبنت طرح مثل هذه الأفكار وترويجها بين الناس دون سابق تعريف لمعنى الهوية، مارست دورها السعاري فى إحداث نقاشات عقيمة ومرتفعة الصوت، لا لبناء وعي معرفي، لكن

لبناء مساحات إعلانية أو تحقيق مكتسبات لفريق سيدفع أكثر من فريق. نعود إلى أحد الأفكار المهمة التي طرحها المفكر الإسلامي المحترم "أبو حامد الغزالي": ليس مهما أن تبحث فى كافة المعارف، لكن المهم أن تبحث عن المعرفة إذا ما جاءك جديد دون مكتسباتك المعرفية فالأولى إذا ما كان هناك فضائيات وطنية محترمة، أن تتبنى تعريفات الهوية وأنواعها بشكل مبسط لا تعال فيه، قبل أن تسير فى مسار البحث فيها. فهل يجوز أن يعلن المنادي: أن شيئا ضاع ولمن يأتى به حمل بعير؟ لم ولن يفعل المنادي إلا إذا كان صاحب الشئ والمنادي مجنونان لعدم تحديد هوية المفقود. إسمه. شكله. مميزاته "صواع الملك". كافة الصفات التى تساعدنا على العثور عليه. الوقوف على الشئ معرفة وتأصيلا يجعلك أكثر رسوخا فى مواقفك، فعندما يسألنى مخالف لي فى العقيدة عن ديانتي أقول: مسلم ويفخر حسب معرفتى وتأويلي واحترامي لقناعاتي ومعارفي الدينية. وإذا ما سألني آخر هل تنتمي لثقافة المسلمين؟ على الفور وبلا أدنى تحرج: لا أنتمي إلى واقع تلك الثقافة. بل ابن شرعي للمصرية القديمة. فالدين جزء من المكون الثقافي وليس كل المكون الثقافي حسب اعتقاد البعض. وعدم انتمائي لثقافة المسلمين أو العرب لا يعنى كفري بديني أو عدم احترامي لثقافة العرب التي أثرت حياتي المعرفية، وبالتحديد من زاوية اللغة العبقرية التى يمتلكها العرب. قضايا معرفية خاصة بتكويني ومكتسباتي الذاتية. سعى الإعلام بشقيه التأسلمي والمتعلمن إلى العبث بها. فأدهش حينما يصر البعض على الهوية

الإسلامية كمحدد نهضوي، والآخر على انتهاج فكرة العلمانية كمنطلق بديل. وكأن العودة إلى التجارب الإسلامية الشخصية للخلفاء والملوك العرب والمحكومة بطبيعة المجتمعات والأفكار والقضايا المرهونة بلحظة تاريخية وبقدرات الحاكم وسماته الشخصية، يمكن أن تصلح للنهوض بالمجتمع فى لحظات تاريخية مغايرة تماما لواقع جاوزه التاريخ، بينما يتخيل الفصيل الآخر بأن استيراد التجارب الغربية كبديل للفكرة الإسلامية، قادر على النهوض بالمجتمع، رغم كونك غير وخلاف ومغاير لهذا وذاك، فإن لم يكن لك فلسفتك الذاتية ومشروعك الفكري، لن تتقدم خطوة للأمام. فهويتك الوطنية تجعلك أمام قطاع عريض من التراث والموروث والتراكم الحضاري التاريخي، مما يعطيك بدائل واسعة لإختيار محددات الإنطلاق الجديد، إما بمحاولة إعادة القراءة وعمل الجدل النقدي اللازم والوقوف على المستجدات والخروج بفكرة مناسبة للحظة الراهنة، أو بمنطق حرق المراحل وتجاهل الماضي والبدء بأفكار جديدة. أرى أن الطرح الفضائي خلا تماما من تلك الرسائل المعرفية، فسبب أزمة فى المصطلح والإجراء، ولم يطرح أفكارا جديدة أو قديمة بخصوص رؤيتنا المستقبلية للنهضة. رغم كون هذه القضايا تعد أهم من الأطروحات الرخيصة التى يتبناها الإعلام المصري بشقيه التجاري والسلطوي، لكن لا عتب على هذه المحطات التى لم ترى مشروعا وطنيا حقيقيا تعمل ضمن دائرته أو تحت مظلته. فالأيام ستثبت للجميع أنه لم ولن تأخذ بلادنا مصطلح الأوطان إلا بوجود ذلك المشروع. لحظتها ستتحول كافة الفضائيات

رغما عنها، إلى حيث الطرح الذي يخدم المشروع النهضوي. فمن سيبادر بطرح فكرة النهضة بإعادة قراءة التراث والموروث ومن سيبادر بطرح فكرة حرق المراحل ومن سيبادر بطرح التوافق بين هذه وتلك دون تلفيق؟ أسئلة متعددة سيتحمل الإعلام جهد طرحها إذا ما كان هناك أصحاب ضمائر تسعى لنهضة الوطن وأشك فى سعيها بعيدا عن الربح. فتخلوا عن أنانيتكم ونفعيتكم وتعالوا بنا جميعا كي ننادي بمشروع للوطن.